

مُلخَص

نتناول في هذا المقال طبيعة العلاقة بين مجالين كبيرين من مجالات العلوم الإنسانية وهما التاريخ والأنثروبولوجيا، فقد حاولنا الوقوف على هذه العلاقة التي قامت في فترات زمنية معينة عرّف فيها المجتمع البشري عدة تطورات. حيث استغل الاستعمار الغربي هذين المجالين أحسن استغلال لخدمة أغراضه الاستعمارية، فتمكن من بناء استراتيجياته على حقائق استقاها من التاريخ والأنثروبولوجيا ومكنته من التغلغل في مواطن مختلفة، ولولا هذه الحقائق لما استطاع أن يكتشف الثقافات والهويات والثروات واستغلالها لصالحه. لقد حاولنا أيضاً أن نموقع التاريخ والأنثروبولوجيا في سياق الفكر الاستعماري، وأن نوضح العلاقة بينهما من خلال بعض الدراسات التي تندرج في السياق التاريخي-أنثروبولوجي، وقد ركزنا في هذا البحث على حالة الاستعمار الفرنسي للجزائر كمثال.

مُقَدِّمَةٌ

تثير العلاقة بين التاريخ والأنثروبولوجيا عدة تساؤلات على المستوى التاريخي من جهة، وعلى المستوى النظري والمنهجي من جهة أخرى. فعلى المستوى التاريخي، تظهر لنا كرونولوجيا الأحداث والوقائع التاريخي-ثقافية، وأيضاً السياسية، أن للتاريخ ارتباط كبير بالدراسات الأنثروبولوجية منذ نشأتها، وفي الوقت نفسه نجد أن الأنثروبولوجيا منذ أن ظهرت البعثات الأولى للرحالة والتجار إلى المجتمعات البدائية اعتمدت على التاريخ كأداة منهجية لجمع المعلومات عن مختلف الشعوب. إن ما جعلنا نبحت في هذه العلاقة هو اطلاعنا على بعض الكتابات المتناقضة حول مدى توفر الدراسات التاريخية للمجتمعات المستعمرة أثناء احتلالها، فالبعض منها يؤكد على وجودها^(أرجمند كوران، ١٩٧٤، ص٤)، بينما يرى البعض الآخر أنها كانت غائبة وحتى إن توفرت فهي غير متطورة^(Goody.Jack. 1977, p283) إن هذا التناقض سمح لنا بالبحث عن الخلفية الحقيقية التي أدت إلى اصطناع العلاقة بين الأنثروبولوجيا والاستعمار من جهة، وإغفال العلاقة القائمة بين التاريخ والأنثروبولوجيا إما بقصد أو بغير قصد من جهة أخرى.

أولاً: تاريخ الأنثروبولوجيا

إن تاريخ الأنثروبولوجيا غير منفصل عن تاريخ الاستعمار الأوروبي للشعوب الواقعة في مختلف القارات. فمنذ القرن السادس عشر حتى النصف الأول من القرن التاسع عشر كان التجار والإداريون والبحارة والمبشرون يقومون بإمداد الغرب بالمعلومات عن تلك الشعوب الأجنبية. وقد ظلت الأبحاث لفترة طويلة مجالاً للوصف وجمع المعلومات الخام، حتى اتضح أن التاريخ والأنثروبولوجيا مجالان متكاملان ومتداخلان إلى حد لم يتمكن الأنثروبولوجي من الاستغناء عن تاريخ الشعوب. وفي المقابل لم يتمكن المؤرخ من الوقوف على حقائق دون الاستعانة بالمعلومات الأنثروبولوجية. إلا أن طبيعة المرحلة قبل منتصف القرن التاسع



التاريخ والانثروبولوجيا، أي علاقة؟ دراسة في الانثروبولوجيا الاستعمارية

د. بوحسون العربي



أستاذ الأنثروبولوجيا
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة تلمسان - الجمهورية الجزائرية

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

بوحسون العربي، التاريخ والأنثروبولوجيا، أي علاقة؟.. دراسة في الأنثروبولوجيا الاستعمارية- دورية كان التاريخية- العدد الثاني والعشرون؛ ديسمبر ٢٠١٣. ص ١٥٢ - ١٥٦.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

كان التاريخية: رقيمة الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأصد

ثالثاً: أسبقية التاريخ على الأنثروبولوجيا

استعانت الإدارة الاستعمارية بالمعرفة التاريخية لمنطقة شمال إفريقيا عامة، وقد كلفها ذلك عدة سنوات قبل هذا التاريخ المذكور لجمع المعلومات اللازمة لتحقيق أهدافها. وما يؤكد على أن التاريخ كمادة معرفية وكأخبار عن الأمم السابقة كانت له أسبقية على الأنثروبولوجيا بالنسبة للاستعمار الغربي، هو وجود كثير من الوثائق والمخطوطات التي تصنف منطقة "البربر" و"منطقة إفريقيا الشمالية" التي تتحدث عن الممالك البربرية وممالك فاس والجزائر وغيرها. وكل هذه الوثائق والمعلومات وكذا المعطيات التاريخية كانت من اجتهاد الكثير من المعاصرين والمسافرين والقنصلين المتوجهين إلى الضفة الجنوبية للبحر المتوسط وتحديداً إلى شمال إفريقيا^١. (فرداجي محمد ألكلي، ٢٠٠٢، ص ٩٥). حيث أن ما قيل عن غياب الدراسات التاريخية فصح المجال للأنثروبولوجيا لإجراء البحوث الميدانية على مناطق مختلفة من الجزائر، يبقى مجرد افتراض غير مؤكد، ما دام أن الشواهد التاريخية والكتابات التي نشرت قبل تاريخ الاحتلال (١٨٣٠) لم تغفل عن تسجيل الماضي الاستعماري لشمال إفريقيا بالنسبة لأوروبا. حيث نشر f.pananti كتابه سنة ١٨٢٠ يرجع إلى تأريخ الوجود الروماني للمنطقة^٢. (نفسه، ص ٩٦).

إن هذه الشهادات والوثائق والمخطوطات التاريخية تدل على مدى أهمية المعرفة التاريخية لدى المستعمر التي بحث عنها العسكريون الفرنسيون لتعزيز وجودهم في الجزائر. ومن خلال هذه المعرفة تمكنت الدراسات الكولونيلية ذات الطابع التاريخي والإثنوغرافي للجزائر من الظهور والتطور. إذ مهما كانت هذه الدراسات تتميز بالوصف الإثنوغرافي ذي البعد الأنثروبولوجي الاستعماري فهي قبل كل شيء كانت تتميز بالطابع التاريخي للمنطقة. وقد أخذت الدراسات التاريخي-أنثروبولوجية على الجزائر، ثلاث أصناف^٣ (نفسه، ص ٩٨)، حيث تميز كل صنف عن الآخر حسب التطور المرحلي والاستراتيجي الذي اعتمد عليه المستعمر:

أ- الدراسات الاستكشافية قبل الاحتلال التي اعتمد فيها المستعمر على الدراسات التاريخية للمنطقة ليأخذ صورة أولية عن ما يهيمه، خاصة تضاريس البلاد، مناخها وجبالها ووديانها وحتى مسالكها المختلفة. نذكر في هذا الصدد دراسات كل من بايسنل (peyssonnell ١٧٢٥) وشاوشو (shaw ١٧٢٠ - ١٧٥٢).

ب- الدراسات العسكرية إبان الاحتلال وتميزت بالطابع العسكري، وكمثال نذكر تلك التي أقيمت على منطقة تارة بتلمسان، من طرف الضباط نواكس NOIX وقينارار GUINARD، وبوائل BOITEL الذين ركزوا على المعرفة العميقة للمنطقة من كل الجوانب^٤. (M.Boitel.A.Canaval.1891). ولعل أشهر الدراسات كانت لمنطقة القبائل (تيزي وزو) التي أنجزها كل من Hanoteau

عشر كانت تبحث أكثر في "الأخر" الأجنبي الذي عُرف بالمتوحش والبدائي^٥. (françois.laplantine.2001,p33). حيث كانت لم تتبلور بعد الإيديولوجيات والمواقف الهادفة للمستعمر الأوروبي. لذلك ظلت الوقائع والأحداث أشبه بالروايات والطرائف غير المؤثقة، مما صعب من مهمة كتابة التاريخ والدراسات التاريخية. وإذا حاولنا الوقوف على تأريخ الأنثروبولوجيا، فإن التراث المعرفي يضع المؤرخ والفيلسوف اليوناني هيرودوت (٤٨٠ - ٤٢٥ ق.م) في صلب بدايات المعرفة عن المجتمعات الأخرى^٦. (بيار بونت، ميشال إيزار، ٢٠٠٦، ص ١٠).

فعندما نتبع حقيقة تاريخ الأنثروبولوجيا نجده عبارة عن تصوير لمراحل ومواقف وجدت بين أوروبا بصفها الغرب المتطور والمهيمن، والشعوب غير الغربية بصفها الآخر المتخلف والبدائي الذي اعتبر موضوعها الأساسي. حيث يرى الغرب أن المجتمعات التي درست من قبل الأنثروبولوجيين الأوائل هي المجتمعات المختلفة عنه في بعض الخصائص كقلة اتصالاتها مع المجموعات المجاورة، وتمتعها بتكنولوجيا أقل تطوراً من تكنولوجيته، ولها بعض التخصصات في بعض النشاطات والوظائف الاجتماعية^٧. (Francois.Laplantine.op.cit,p 10).

ثانياً: التاريخ والأنثروبولوجيا

في الواقع ولدت الأنثروبولوجيا من اكتشاف أوروبا للبشر الغريب، وأي محاولة للفصل بين الأنثروبولوجيا والتاريخ لا تستند إلى معايير معرفية أكيدة، فالفصل بينهما ينتج عن الصدفة التاريخية التي تنطوي عليها التقاليد الأكاديمية، وكذلك عن الضرورة النظرية^٨. (بيار بونت، ميشال إيزار، المرجع السابق، ص ٣٣٦). مهما كانت الشروح المقدمة متباعدة، فإن قاسمهما المشترك هو ترتيب تنوع المجتمعات البشرية بالمقابلة بين العالم المتحضر المحفوظ للمؤرخ والعالم الهمجي المسلم للفضول الإثنولوجي. كما أن الاختلاف بين الأنثروبولوجيا والتاريخ يجد أصله في فكرة وجود نمطين من البشر يجب أن يقابلهما نوعاً معارف متميزان. هذا الاختلاف كامن إذن بالجوهر في ميدان المعرفة^٩. (نفسه، ص ٣٣٦).

غير أن هذا الترتيب يبقى محل نقاش جاد، فمن غير الممكن أن يبقى مجال اهتمام المؤرخ على ما هو متحضر وفي الزمان دون الرجوع إلى البحث في ماضي الشعوب. هذا من جهة، ومن جهة أخرى؛ فإن الأنثروبولوجيا التي تدرس الثقافة والنظم الاجتماعية البدائية ليس حكراً على الأنثروبولوجي وحده. إذ لا بد من تكامل بين علماء التاريخ والأنثروبولوجيا. فقط من الناحية المنهجية قد يحدث التناقض بين الطابع الكتابي والشفهي لمصادر المعلومات، حيث يفضل التاريخ الوثائق المكتوبة، بينما الأنثروبولوجيا المواد الشفهية والنظرية.

ونواميسها الاجتماعية، وقد كنا نجعل أبسط المعاني لأي كلمة من اللغة التي يتحدثونها وحتى جغرافية البلد نفسه، موارد، مجاريه المائية، مدنه والخصائص المناخية^{١٥}. (فيليب لوكا جون كلود فاتان، ٢٠٠٢، ص ٩٤). حيث يضيف نفس الكاتب "فعندما تتمكن من اللغة ومعرفة الخلفيات وممارسات العرب، وعندما تتمكن من اكتساب نفس الهيمنة التي يكتمها هؤلاء الرجال للحكم السابق (أي الحكم التركي) عندئذ يصبح المجال متاحا لنا لممارسة أساليبنا في الحكم ومن تم فرنسة البلاد ولقها من حولنا^{١٦}. (نفسه، ص ٩٧). لقد تبين لنا من هذه الرسالة أن الحركة الاستعمارية على الجزائر لم تقتصر على فرض منطقتها بالقوة، ولكن سمحت لها الدراسة الأولى التي استقتها عن الشعوب الأخرى المسماة (بدائية ووحشية) ببلورة الفكرة الإيديولوجية للتدخل الاستعماري المبرر على أساس إيديولوجي مقبول بالنسبة له (أي الغرب)، وقد تجلى ذلك فيما كتبه أرنت مرسسي Ernest Mercier الذي ينتهي من حيث أعماله إلى الفترة (١٨٧٠-١٨٩٠) في كتابه سنة ١٩٠١ تحت عنوان "مسألة الأهالي في الجزائر في بداية ق ٢٠ - la question indigène en Algérie au commencement de XX siècle. فقد بدا له أن وضع المعارف حول السكان الأهالي غير كاف، والحال أن المعارف حول هؤلاء السكان هي التي لا تبعث على الرضا، وهو سبب طيب للخلوص إلى أن هناك فرقا بين الأوروبيين والأهالي ومن تم حق الأوائل في إدارة شؤون الآخرين^{١٧}. (نفسه، ص ٢٥).

كان للاستعمار نفس المنطق مع مختلف الشعوب التي استعمرها، ففي السودان قبل استقلاله سنة ١٩٥٦ كانت البحوث خلال المرحلة الاستعمارية تجرى على أيدي باحثين أجنب وتحت إشراف حكومة أجنبية، وهي الفترة التي أنجز فيها إ.بريتشارد، ونادل، ولينهارت، وبيكستون أعمالهم^{١٨}. (عبد الغفار محمد أحمد، ٢٠٠٢، ص ٢). لقد وضع بريتشارد هذه العلاقة بين الأنثروبولوجيا والمستعمر في التعاون الذي أجري بين الطرفين خلال الاحتلال البريطاني للسودان، حيث يقول: شجعت حكومة السودان الإنجليزي المصري آنذاك بشكل دائم البحث الأنثروبولوجي في جنوب السودان سواء كان احتراقياً أم على سبيل الهوية. فقام ج.ج. سليجمان وزوجته د.د. سليجمان بمسوح في الفترتين (١٩٠٩ - ١٩١٠) و(١٩٢١ - ١٩٢٢) ونشرت ملاحظتهما إلى جانب معلومات أخرى جمعها آخرون سنة ١٩٣٢ في الكتاب المعنون "القبائل الوثنية في السودان النيلي". وقد صرح إ.بريتشارد بأنه قام بست زيارات إلى جنوب السودان وأجرى دراسات على المناطق التي لم يغطيها الزوجان سليجمان من قبله في الزيارة الأولى. أما خلال الزيارات الخمس الأخرى فقد أجرى دراسات مكثفة للأزناقي والنوير وللأنواك بدرجة أقل. وقد قام كذلك لينهارت بخمس زيارات إلى جنوب السودان أيضاً خلال الفترة (١٩٤٨-١٩٥٤) قام خلالها بدراسة مكثفة على الدينكا والأنواك. كما قام نادل بمواصلة أعمال بريتشارد وسليجمان في وسط سكان جبال النوبا. بينما ركزت

وكذلك letourneux تحت عنوان "منطقة القبائل وأعرافها" التي صدرت سنة ١٨٩٣.

ج- الدراسات الكولونيالية الأكاديمية، نستطيع أن نشير في هذا المحور إلى دراسة Emile Masqueray وهو أحد الجامعيين الذين اهتموا بالإشكالية الاستعمارية من الزاوية العلمية.

رابعاً: الاستعمار والأنثروبولوجيا

في الوقت الذي استعان فيه الاستعمار بخدمات الأنثروبولوجيين استطاع أن يجد مبررات لتوظيف علماء الأنثروبولوجيا لدراسة المستعمرات، تمثلت في غياب الدراسات التاريخية حول هذه الشعوب. وحتى الدراسات التي توفرت قبل الاحتلال الفرنسي، بالإضافة إلى قلتها قامت فرنسا بالتأكد منها في الميدان. لقد ألصقت بالأنثروبولوجيا تهمة العلم الذي يخدم الاستعمار لا لشيء سوى أن البعض رأى أن الدراسات المونوغرافية والإثنولوجية التي أنجزها الغرب على الشعوب التي استعمرها عملت على كشف خصوصيات المجتمعات. ويرجع البعض قيام الأنثروبولوجيا بهذه المهمة إلى غياب الكتابات والدراسات التاريخية لهذه المجتمعات^{١٩}. (مولاي الحاج مراد، ١٩٩٩، ص ٢١).

حيث يعبر الأنثروبولوجي الإنجليزي إ.بريتشارد عن العلاقة بين الاستعمار والأنثروبولوجيا بقوله: "إذا كانت السياسة الاستعمارية لحكومة ما، تقوم على حكم شعب من الشعوب بواسطة رؤسائه، فمن المفيد أن يعرف من هم هؤلاء الرؤساء، ما هي وظيفتهم، وسلطتهم وامتيازاتهم، وواجباتهم، فإذا سلمنا بأن حكم شعب ينبغي أن يتم وفقاً لشرائعه الخاصة وعاداته الخاصة، فيجب أولاً أن نكتشف هذه الشرائع وهذه العادات"^{٢٠}. (الزواوي بغورة، ٢٠٠١، ص ٢٧). لقد سخرت الأنثروبولوجيا في البداية من طرف المستعمر لاحتلال الشعوب بواسطة استغلال المعلومات المجمععة عن الأهالي التي سمحت لهم بنهب خيراتهم الاقتصادية وسلمهم مقوماتهم الثقافية، وذلك باستخدام وسائل متنوعة كالتجهيل والإفقار، القهر والإكراه والعنف وحتى القتل. هذا ما حدث للشعب الجزائري من الفترة الممتدة ما بين (١٩٤٥-١٩٥٤) عندما أقدمت فرنسا على تجريد المواطنين من ممتلكاتهم وأراضيهم وتهجيرهم إلى الجبال. فقد كتب فريدريك أنجلز في ١٧ أيلول من سنة ١٩٥٧ يقول: ومنذ احتل الفرنسيون الجزائر لأول مرة حتى الآن، كانت هذه البلاد البائسة ميدان لأعمال متواصلة في إراقة الدماء والسلب والعنف. بينما أولئك البائسون من أفرادها الذين بقوا على قيد الحياة قد سقطوا ضحية القتل الجماعي أو فريسة أهوال القهر والوحشية^{٢١}. (أحمد البعلبيكي، ١٩٨٥، ص ١٢).

لقد حاول ألكسيس دو توكوفيل Alexis de Tocqueville الربط بين السياسة الاستعمارية والمعرفة حول الجزائر من خلال تحليل إحدى المراسلات الاستعمارية التي تطرقت إلى دراسة العادات والتقاليد والأعراف السائدة لدى الجزائريين، مضمونها: "لم تكن لنا أية أفكار واضحة عن مختلف القوميات التي تسكن المنطقة

ويضيف: إن هذه الدفاتر تشكل مصدراً أساسياً لدراسة الحكم التركي بالبلاد من حيث الإدارة والاقتصاد وجباية الضرائب وتأثير الحباس، وبصفة عامة تعد هذه الوثائق مصدراً لدراسة المجتمع الجزائري أثناء وجود الأتراك بالبلاد^{١٣}. (أرجمند كوران، مرجع سابق، ص ٤).

سادساً: علاقة التاريخ بالأنثروبولوجيا على المستوى النظري

تكمن هذه العلاقة في الإنتاج المعرفي الذي تأسس كمنهج للتحليل الأنثروبولوجي عبر مراحل الدراسات التاريخية والأنثروبولوجية على الأنظمة الاجتماعية والثقافية التي وجدت عند مختلف الشعوب. وقد تحددت هذه العلاقة من خلال الاتجاهين التاليين:

- الاتجاه التطوري: أعتبر أول تيار فكري في تاريخ النياسة، ظهر في أواخر القرن ١٩ أي ما بين (١٨٥٠-١٩١٠)، حيث تعاطى هذا الاتجاه مع موضوع النياسة بدراسة مختلف الشعوب التي تعاقبت عبر الزمن في مختلف أنحاء العالم على درجات متفاوتة من الثقافة. إن إنسان المجتمعات الغابرة المعاصر على ما يقول الباحث التطوري هو صورة عن أجدادنا القدماء وعن مجتمعاتهم الذي كنا قد شهدناه في ما مضى. وموضوع البحث الأساسي هو أن نفسر تاريخياً مختلف المراحل التي مرت بها البشرية عبر اكتشاف القوانين التي أتاحت الانتقال من مرحلة إلى أخرى^{١٤}. (جاك لومبار، ١٩٩٧، ص ٦٤). هذا عن الموضوع، أما فيما يخص المنهج فإن الاتجاه التطوري يعتمد على التاريخ لكنه تاريخ تخميني، أي افتراضي وحسب أي تاريخ ملتبس، إذ أنه لا يملك بالنسبة لهذا النمط من المجتمعات تلك المستندات التي يعتمدها تقليدياً، أي الوثائق المكتوبة التي تأتي لتؤكد صحة واقع تاريخي ما أو حدث تاريخي ما^{١٥}. (نفسه، ص ٦٥). كما أن المقاربة التاريخية في الدراسة الأنثروبولوجية تفترض دراسة الظاهرة التي تحتم الانتقال من مرحلة إلى أخرى، بحيث تؤدي هذه الحتمية التاريخية إلى تفسير سببي، أي عندما تتوفر معطيات معينة حول وقوع ظاهرة معينة تؤدي إلى نشأة ظواهر عن الظاهرة التي سبقتها. نذكر على سبيل المثال أعمال كل من ل. مورغان (المجتمع الغابر-١٨٧٧)، وإ.ب. تايلور (بدايات التاريخ البشري ونمو الحضارة-١٨٦٥) وكذلك (الثقافة البدائية-١٨٧١).

- الاتجاه الانتشاري: استخدم هذا الاتجاه أيضاً التاريخ كأداة تفسيرية للتغير الاجتماعي، حيث بحث في صيغ الانتشار من ثقافة إلى أخرى، أي كيف ينتقل عنصر ثقافي من مجتمع إلى آخر. وبالتالي فإن نظريته لهذا الموضوع هي نظرة تاريخية تتناول دائماً كيفية حصول التغير عبر الزمن. إلى جانب ذلك كانت نظريته جغرافية أيضاً لأنها تتابع التغيرات التي تحدث في أقاليم ومناطق معينة. لقد عمل هذا الاتجاه على إثبات تاريخية الشعوب المفترضة دون تاريخ عبر دراسة توزيعها المكاني^{١٦}. (بيار بونت، ميشال إيزار، المرجع السابق،

الباحثة جين بيكستون على دراسة المانداري في الفترة ما بين (١٩٥١-١٩٥٢). لقد كانت رغبة الحكومة في رعاية البحوث الأنثروبولوجية جزءاً من سياسة عامة دعمتها وزارة المستعمرات لجمع المزيد من المعلومات الموثوق بها عن التنظيم الاجتماعي للسكان، ونظم معتقداتهم، حيث تعاونت الإدارة الاستعمارية مع الأنثروبولوجيين في هذه المرحلة على غرس إيديولوجيا الاستعمار. وكان الهدف الرئيسي هو ضبط السكان الوطنيين وقمعهم واستغلالهم^{١٩}. (نفسه، ص ٥٤).

خامساً: الاستعمار الفرنسي للجزائر والتاريخ

إن وقائع وجرائم الاستعمار الفرنسي في الجزائر كثيرة لا تعد ولا تحصى وأبشعها حدثت إبان ثورة التحرير الجزائرية (١٩٥٤-١٩٦٢). وللبشاعة ألوان التعذيب والجرائم من المذابح والمجازر يصنف البعض من الباحثين الجزائريين من خلال كتاباتهم المستفاعة من شهادات وأحداث واقعية، الاستعمار الفرنسي في الجزائر جريمة ضد الإنسانية^{٢٠}. (مجاود محمد، ٢٠٠٦). غير أن الكتابات التاريخية ظلت غائبة خلال الفترة (١٨٣٠-١٩٥٤) من جانب الجزائريين، ذلك لأن الاستعمار قد بالغ في تزوير الوقائع والأحداث التاريخية، قاصداً بذلك إلى تعقيدنا، أي جعلنا نشعر بعقد النقص، وإلى إظهارنا بمظهر يتامى التاريخ، دون ماض أو وجود كدولة وكأمة كانت لها مساهمتها في الحضارة الإنسانية. ويرجع السبب إلى أن كتابة التاريخ كما يرى بعض المؤرخين هو الذي يكتب بأعلام أبنائه لأهم أدرى بوقائعه ومجرياته الصادقة. وفي مقابل ذلك ظهرت كتابات الفرنسيين وفيرة في هذا المجال التي نراها دوماً أنها كتابات مزيفة غرضها تنظيف التاريخ الفرنسي من ما اقترفه من جرائم ضد الشعب الجزائري^{٢١}. (جيلالي بلوفة عبد القادر، المرجع السابق، ص ٢١٠).

وتعد هذه صورة من صور طمس الحقائق وتشويهها التي لازال العالم الغربي يعتمد عليها إلى اليوم في تدخلاته العسكرية والسياسية في كثير من بلدان العالم الآخر. وعلى هذا الأساس ينبغي أن يكتب تاريخ بلادنا كما يرى قاسم نايت بلقاسم بعقلنا بطريقة منهجية ومنظمة، وبزاهة علمية، ولكن أيضاً بروحنا، تماماً كما تفعل جميع الأمم^{٢٢}. (مولود قاسم نايت بلقاسم، ٢٠٠٧، ص ٢٧٤). إن الذين كتبوا عنا من المؤرخين الغربيين قد اتخذوا من أرشيف بلدانهم مصادر للبحث وأهملوا بقية دور الوثائق، خاصة التركية والتونسية والجزائرية والليبية، عن قصد أو غير قصد فوقع بعضهم بذلك في أخطار كثيرة وكبيرة. وقد حاول هؤلاء المؤرخون اتهام شعوبنا بأنها عقيمة القرية، فحسب إدعائهم لم يعثروا على وثائق كتبت بأيدي مغربية، ولا وجدوا ما يعتمدون عليه في دراساتهم التاريخية. ويقول مؤلف كتاب: السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر (١٨٢٧-١٨٤٧) أن الأرشيف التونسي والجزائري والليبي، العربي منه والتركي بقي مهملاً تماماً، وقد بقي أكثر من ٥٠٠ دفتر عربي وتركي في الجزائر غير مفسرة ولا عرفت محتوياتها.

الهوامش:

- (1) أرجمند كوران. السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر(١٨٢٧-١٨٤٧). نقله عن التركية (ترجمة) عبد الجليل التميمي. ط١. الشركة التونسية لفنون الرسم. تونس. ١٩٧٤.
- (2) Goody.Jack.Histoire;et;Anthropologie, convergences et divergences. Ethnologie française XXIII, 1977.
- (3) François. Laplantine, l'anthropologie, ed, payot. paris, 2001.
- (٤) بياربونت، ميشال إيزار، معجم الأنثولوجيا والأنثروبولوجيا، ترجمة وإشراف مصباح الصمد. ط١، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع "مجد". ٢٠٠٦.
- (5) François. Laplantine. op.cit.
- (٦) بياربونت، ميشال إيزار، المرجع السابق.
- (٧) المرجع نفسه.
- (٨) فرداجي محمد أكي، الإشكالية المعرفية للسوسيولوجية الكولونيبالية في الجزائر: دراسة عينة من الأبحاث الكولونيبالية التي أنجزت حول منطقة القبائل. في علم الاجتماع والمجتمع في الجزائر. أعمال الملتقى الوطني لعلم الاجتماع والمجتمع في الجزائر، أية علاقات؟ تنسيق عبد القادر لقعج، وهران أيام (٤، ٥، ٦ مايو) ٢٠٠٢، دار القصة للنشر، الجزائر.
- (٩) المرجع نفسه.
- (١٠) المرجع نفسه.
- (11) Nedroma et le pays des traras. description par M. Boitel. A. Canaval. S.G/A.P.O tome XI.1891.
- (١٢) مولاي الحاج مراد، مكانة التحقيق الميداني في الدراسات الأنثروبولوجية. في وقائع الملتقى: أي مستقبل للأنثروبولوجيا في الجزائر، مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية. وهران ٢٤.٢٣.٢٢ نوفمبر ١٩٩٩.
- (١٣) الزواوي بغفورة، المنهج البنوي: بحث في الأصول والمبادئ والتطبيقات، دار الهدى، عين مليلة الجزائر ٢٠٠١.
- (١٤) أحمد البعلبكي، المسألة الزراعية أو الوعد الراقد في ريف الجزائر، ط١، منشورات عويدات، بيروت، باريس ١٩٨٥.
- (١٥) فيليب لوكا جون كلود فاتان، جزائر الأنثروبولوجيين- نقد السوسيولوجيا الكولونيبالية، ترجمة محمد يحياتن، بشير بولعراف، وردة لبنان. منشورات الذكرى الأربعين للاستقلال، وزارة المجاهدين. ٢٠٠٢.
- (١٦) المرجع نفسه.
- (١٧) المرجع نفسه.
- (١٨) عبد الغفار محمد أحمد، حالة الأنثروبولوجيا في السودان، في أركاماني، مجلة الآثار والأنثروبولوجيا السودانية العدد ٣، أغسطس ٢٠٠٢. الموقع: http://www.arkamani.org/vol/_3/Anthropology_vol/state_of_anth_arabic.htm
- (١٩) المرجع نفسه.
- (٢٠) انظر: سياسة التعذيب الاستعمارية إبان الثورة التحريرية وتداعياتها المعاصرة، تحت إشراف أ.د. مجاود محمد. مكتبة الرشد للطباعة والنشر والتوزيع. س. بلعباس/الجزائر ٢٠٠٦.
- (٢١) جيلالي بلوفة عبد القادر، الكتابات الفرنسية حول التعذيب -دراسة نقدية في كتاب: أرابايل برانش. تحت إشراف محمد مجاود. المرجع السابق.
- (٢٢) مولود قاسم نايت بلقاسم، أصالية أم انفصالية. ج٢. دار الأمة، الجزائر، ٢٠٠٧.
- (٢٣) أرجمند كوران، مرجع سابق.
- (٢٤) جاك لومبار، مدخل إلى الإنثولوجيا، ترجمة حسن قبيسي. ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٧.
- (٢٥) المرجع نفسه.
- (٢٦) بياربونت، ميشال إيزار، المرجع السابق.
- (27) Claude Rivière, Introduction à l'anthropologie, éd., Hachette, paris, 2002.
- (28) Ibid.

ص٢١٧). فعندما سجلت الأنثروبولوجيا الوظيفية مقارباتها المنهجية بالملاحظة والتحقيق الشفهي، انشغل علماء التاريخ على المصادر المكتوبة. فالعرقية التاريخية Ethnohistoire أعدت تاريخ المجتمعات التي يقال عنها بدون تاريخ، وقد عولج تاريخ الغرب تحت الزاوية الأنثروبولوجية التي تدرس الحياة الجماعية، وليس فقط الأحداث الكبيرة والعظماء من الرجال، والمجتمعات الحكومية والطبقات المهيمنة^{٢٧}. (Claude Rivière.2002,p18)

ومنذ الثلاثينيات تطورت الأنثروبولوجيا التاريخية في فرنسا حيث تأسست مدرسة الحوليات (تاريخ الأحداث) التي أصبحت تهتم بالحاضر وبالتحولات عبر الزمن، ووجهت علماء التاريخ إلى دراسة الميدان، والأحداث الجزئية والبنى الاجتماعية. وهذه موضوعات ذات أهمية بالنسبة لعلماء الأنثروبولوجيا حالياً^{٢٨}. (Ibid.p19)

نستطيع القول؛ أن البحث في تاريخ الشعوب يتطلب تعاون كل من علماء التاريخ والأنثروبولوجيا من أجل تزاوج التقنيات للوصول إلى الحقائق البعيدة.

خاتمة

سمحت لنا دراسة هذه العلاقة بين التاريخ والأنثروبولوجيا بتأكيد العلاقة القديمة بينهما، حيث من الصعب كتابة تاريخ الشعوب دون معرفة أنظمتها الثقافية والاجتماعية. وتعتبر الأنثروبولوجيا المعرفة التي تكشف عن الحقائق، وتساهم بفعالية في إثراء التاريخ. وأما القول بغيباب الكتابات التاريخية فهو في اعتقادنا صنع استعماري يحمل في طياته عدة أهداف ونوايا، استطاع أن يجسدها في استراتيجياته أثناء الاستعمار وبعده تجاه مختلف الشعوب. وقد تجلى ذلك بوضوح في العلاقة بين الاستعمار والأنثروبولوجيا بشكل خاص.